تأملات في سورة ق

محاضرة للشيخ الفاضل:

أبي محمد عبد الحميد بن يحيىٰ بن زيد الحجوري

الزُّعكري

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وأشهد ألا إله إلا الله وحده ربي لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بَعْد:

فإننا نحمد الله عز وجل الذي جمعنا في هذا المسجد وهذا الوقت ونسأل الله عز وجل لنا ولكم المزيد من فضله.

وقد يسر الله عز وجل أن سمعنا في هذا الصباح سورة: ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾[ق:١]، وهي من السور التي كان يهتم بها النبي صلىٰ الله عليه وسلم بها كثيرًا في خطبه وفي صلاته.

أما الصلاة فصح عن جابر بن سمرة رضي الله عنه في مسلم: أن رسولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم كان يقرأُ في الفجرِ بق والقرآنِ ، ونحوها.

وأيضـًا: عن قُطْبَةَ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : صَلَّيْتُ وَصَلَّىٰ بِنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَرَأَ : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾[ق:١]، حَتَّىٰ قَرَأَ : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾[ق:١٠]، قَالَ : فَجَعَلْتُ أُرَدِّدُهَا، وَلَا أَدْرِي مَا قَالَ.أخرجه مسلم؛ لأنه جعل يتفكر في النخلة وفي خلق النخلة التي خلقها الله عز وجل وذكرها في هذا الموطن.

وأما الخطبة فقد صح عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: ما أخذت:

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾[ق:١]، إلا عن لسان رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم - يقرؤها كل جمعة علىٰ المنبر إذا خطب الناس. رواه مسلم.

والمتأمل لهذه السورة والمتفكر في معانيها العظيمة يعلم السر في حرص النبي صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ قراءتها، فهي سورة وعظ وتذكير وسورة تخويف وبشارة، وتظهر حياة الإنسان منذ خلقه الله عز وجل وحتىٰ يصير إلىٰ جنةٍ ونهر.

وفيها: من كون الله عز وجل جعل علىٰ العباد من يسطر لهم أعمالهم وأقوالهم.

وفيها: أن القرين السيئ يتبرأ من صاحبه يوم القيامة ويرد الخطأ علىٰ صاحبه.

وفيها: أن جهنم خلق عظيم: لا يزال يلقىٰ فيها وتقول هل من مزيد، هل من مزيد حتىٰ يضع الجبار قدمه فيها فتقول قط قط، ودليل ذلك: ما روىٰ البخاري ومسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ، حَتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَتَقُولُ قَطْ قَطْ وَعِزَّتِكَ، وَيُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ».

وفيها: رحمة الله عز وجل لعباده إذ يزلف لهم الجنة ويقرب لهم الجنة: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾[ق:٣١]، وأن الجنة لها أسباب، ومن أسبابها: حفظ حدود الله عز وجل، والإنابة إلىٰ الله عز وجل، والتوبة والرجوع: ﴿

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[ق:٣١-٣٥]،

وفيها: تحذير الله عز وجل من الغرور في هذه الدنيا والركون إليها، فقد أخبر أنه أهلك من هو أشد قوة وأكثر جمعًا، فقال عز وجل: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾[ق:٣٦].

هل من مهرب إلىٰ غير الله عز وجل؟

الجواب: لا: ﴿ فَفِرُّوا إِلَىٰ اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾[الذاريات:٥٠].

وفيها: قدرة الله العظيمة إذ خلق السموات والأرض في ستة أيام، ولم يخلق الله عز وجل السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام لعجزه أو لضعفه فهو القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾[ق:٣٨]، وإنما اقتضت حكمته ذلك وإلا: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢].

وفي أخرها: الحث علىٰ تسبيح الله عز وجل في أواخر الليل وفي أدبار السجود، ثم كانت الموعظة البليغة التي كتبت من هذه السورة: ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾[ق:٤١-٤٢]، يخروجون من قبورهم حفاةً عراةً غرلًا، يقول النبي

صلىٰ الله صلىٰ الله وسلم كما قال الله عز وجل: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٤]، وقوله: ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾[ق:٤١]، يدل علىٰ تحقق هذا اليوم ووقوع هذا اليوم لا محالة.

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾[ق:٤٢]، والصيحة صيحتان: صيحة الإماتة، وصيحة البعث: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾[الزمر:٦٨].

وأخبر الله عز وجل: أن الذكر تنفع من كان له قلب هذه المواعظ، وهذه البشارات وهذه النذارات التي تضمنتها هذه السورة وما في بابها من السور إنما ينتفع بها: ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق:٣٧].

فيا أيها المسلمون: إن الله عز وجل قد أنعم علينا بهذا الكتاب العظيم الذي: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت:٤٢]، وحفظه سبحانه وتعالىٰ من عبث العابثين ومن تحريف المحرفين: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر:٩].

فينبغي للمسلمين أن يهتموا بهذا الكتاب قراءةً وحفظًا وتدبرًا وعلمًا وعملاً، فإنه من جعله أمامه قاده إلىٰ الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلىٰ النار، وقد قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «أبشِروا أبشِروا، أليسَ تشهدونَ أن لا إلهَ إلَّا اللهَ وأنِّي رسولُ اللهِ ؟ قالوا : نعم قالَ : فإنَّ هذا القرآنَ سببٌ، طرَفُهُ بيدِ اللهِ،

وطرفُهُ بأيديكم فتمسَّكوا بهِ، فإنَّكم لن تضِلُّوا ولن تهلِكوا بعدَهُ أبدًا»، أخرجه ابن حبان عن أبي شريح العدوي الخزاعي الكعبي، وهو في الصحيح المسند، وفي حديث زيد بن أرقم عند مسلم قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ»، فحث علىٰ كتاب الله ورغب فيه.

ومن بركة هذا الكتاب ومن فضل الله علينا: أن الله شرع لنا قراءته في صلواتنا وشرع لنا قراءته في غير ذلك، فالإنسان مهما بلغ إعراضه وهو مسلم ما يزال مسلمًا لابد أن يقرأ آيات من القرآن الكريم، ولو لم يكن إلا قراءة سورة، سورة الفاتحة فاتحة الكتاب: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾[الحجر:٨٧]، الرقية، الصلاة، الحمد لله لها أسماء كثيرة لبركتها.

والمتأمل لبقاء هذه الطائفة المنصورة الفرقة الناجية مع كثرة المخالفين والمعارضين والمحاربين يجد أنه بعد توفيق الله عز وجل أن الله عز وجل حفظ لهم هذا الكتاب، فاعتقدوا بما فيه ودعوا إليه وحرموا ما فيه، وإذا قرن الإيمان بالقرآن والعمل بالقرآن فيدخل فيه الإيمان بالسنة والعمل، وضل غيرهم وهم بحمد الله كما قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، أَوْ خَالَفَهُمْ»، فلما تمسك أهل السنة والجماعة بهذا الدين القويم والصراط المستقيم وأخذوا عقائدهم من الأدلة الثابتة سلمَ لهم دينهم وتفرق

غيرهم وابتدع غيرهم حتىٰ يأتي امر الله، كما أخرجه مسلم من حديث ثوبان، رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»، والله ليس بقوتهم، وليس بفصاحتهم، وليس بكثرة أموالهم، وليس بوجهاتهم؛ ولكن لما يحملون من دين الله العظيم، من دين الله الذي: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ﴾[فصلت:٤٢]، النور الذي أنزله الله عز وجل، والرحمة التي أنزلها الله عز وجل، والفضل العظيم من الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس:٥٨]، فضل الله عز وجل القرآن والإسلام، وهذه السنة والطريقة طريقة النبي صلىٰ الله عليه وسلم، فالفرح يكون بأخذ القرآن وبأخذ السنة والعمل بهما، هو خير مما يجمعون من طمع الدنيا ومن زينة الدنيا.

أيها المسلمون إننا والله نرىٰ بركة التمسك بهذه الطريقة السلفية الصحيحة وذلك؛ لأنها دين الله **أولًا**: التمسك بدين الله عز وجل سبب لكل خير: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾[الأعراف:١٧٠]، فالمتمسكون بالكتاب والسنة هم المصلحون.

الأمر الثاني: أن هذه الطريقة توصل إلىٰ الله عز وجل، ولا سبيل إلىٰ الله عز وجل إلا منها: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[الأنعام:١٥٣].

الثالث: أنها هذه الطريقة هي طريقة من اصطفىٰ الله سبحانه تعالىٰ من الأنبياء والمرسلين، ومعلوم أن طريقة المصطفين غير طريقة غيرهم: ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴾[آل عمران:٣٣]، فينبغي أن نأخذ بهذه الطريقة التي جعل الله عز وجل المصطفين الأخيار من الأنبياء والمرسلين ومن المهاجرين والأنصار.

الأمر الرابع: أن هذه الطريقة وإن بعد العهد النبوي مازالت هي الطريقة التي كانت في عهد رسول الله عز وجل لم تتغير ولم تتبدل، صلواتهم كصلاة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، اعتقاداتهم كاعتقاد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، حجهم كحج رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، صيامهم كصيام رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، معاملتهم للناس كمعاملة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، أخلاقهم وكل ما يفعلون ويذرون هذه الطائفة سائرة علىٰ سيرة النبي صلىٰ الله عليه وسلم ففيها الخير العظيم.

الأمر الخامس: أن هذه الطريقة هي التي سلكها المهاجرون والأنصار الذين هجروا بلدانهم وضحوا بأموالهم وقدموا أنفسهم رخيصة لأجلها، ففي حديث أنس بن مالك عند مسلم: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ أفردَ يومَ أُحُدٍ في سبعةٍ من الأنصارِ ورجلَينِ من قريشٍ، فلما رَهقوه قال: «من يَردُّهم عنا وله الجنةُ، أو هو رفيقي في الجنةِ ؟»، فتقدَّم رجلٌ من الأنصارِ ، فقاتل حتىٰ قُتِلَ، ثم رَهقوه أيضًا فقال: «من يَردُّهم عنا وله الجنةُ، أو هو رفيقي في

الجنةِ ؟»، فتقدَّم رجلٌ من الأنصارِ فقاتل حتىٰ قُتِلَ، فلم يزلْ كذلك حتىٰ قَتَلَ السبعةَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ لصاحبَيه: «مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا»، وهم يدافعون عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فهم رفقاء رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في الجنة.

فيا أيها المسلم أنت كذلك إن دافعت عن دين الله وحفظت كتاب الله وعملت بما فيه، ومت علىٰ سنة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وكنت من حملتها والمدافعين عنها فعسىٰ أن تكون مع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في الجنة.

الأمر الذي يليه: أن الدين قد وقع فيه التفرق بصورة عجيبة حتىٰ لقد وصلت الفرق الأساسية إلىٰ ثلاثة وسبعين فرقها، قال عنها النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»، والاثنين والسبعين فرقة هي فرق الضلال، وهذه الطائفة وهذه الفرقة مازالت علىٰ ما كان عليه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لم تغير ولم تبدل.

الأمر الذي يليه: أن بقاء هذه الطائفة وهذه الفرقة أمنة للأمة، قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم كما في حديث أبي موسىٰ عند مسلم: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّىٰ نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ قَالَ فَجَلَسْنَا، فَخَرَجَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا: نَجْلِسُ حَتَّىٰ نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ، قَالَ «أَحْسَنْتُمْ أَوْ

أَصَبْتُمْ» قَالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَقَالَ: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَىٰ السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَىٰ أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَىٰ أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ».

ومعنىٰ الحديث: أن هذه الطريقة أيضاً هي أمنة للأمة فإذا ذهبت هذه الطريقة أتىٰ الأمة ماتوعد وهي الساعة، لا تقوم الساعة إلا بعد قبض الله عز وجل لهذه الطائفة المنصورة الفرقة الناجية، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ رِيحًا مِنَ الْيَمَنِ أَلْيَنَ مِنَ الْحَرِيرِ، فَلَا تَدَعُ أَحَدًا فِي قَلْبِهِ - قَالَ أَبُو عَلْقَمَةَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ، وَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ: مِثْقَالُ ذَرَّةٍ - مِنْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ»، وهكذا جاء من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «يَخْرُجُ الدَّجَّالُ .... ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ، فَلَا يَبْقَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّىٰ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ، حَتَّىٰ تَقْبِضَهُ»، وعنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ لاَ يُقَالَ فِي الأَرْضِ: الله، الله». رواه مسلم.

وهذه الطريقة هي الطريقة التي يُسأل عنها الناس يوم القيامة، فمن غير عنها وبدل طرد من الحوض المورود وحُرم من خيرات عظيمات، ومن

تمسك بها كان ممن يسقيه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم من حوضه، ففي حديث جابر رضي الله عنه: أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال لكعب بن عجرة رضي الله عنه: «أعاذَكَ اللهُ مِن أمارةِ السُّفَهاءِ، قالَ: وما أمارةُ السُّفَهاءِ؟ قالَ: «أُمراءُ يَكونونَ بَعدي، لا يقتَدونَ بِهَديي، ولا يَستنُّونَ بسُنَّتي»، هؤلاء هم السُفهاء يهتدون بغير هدي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ويستنون بغير سنة رسول الله عليه وسلم: «فمن صدَّقَهُم بِكَذبِهِم، وأعانَهُم علىٰ ظُلمِهِم، فأولئِكَ ليسوا منِّي، ولستُ منهم، ولا يرِدوا علَىٰ حوضي، ومن لَم يصدِّقهم بِكَذبِهِم، ولم يعِنْهم علىٰ ظُلمِهِم، فأولئِكَ منِّي وأَنا منهم، وسيَرِدوا علَىٰ حوضي، يا كعبُ بنَ عُجرةَ، الصَّومُ جُنَّةٌ، والصَّدقةُ تُطفئُ الخطيئةَ، والصَّلاةُ قُربانٌ - أو قالَ: بُرهانٌ - يا كعبُ بنَ عُجرةَ، إنَّهُ لا يدخلُ الجنَّةَ لَحمٌ نبتَ من سُحتٍ النَّارُ أولىٰ بِهِ، يا كعبُ بنَ عُجرةَ: النَّاسُ غاديانِ: فمُبتاعٌ نفسَهُ فمُعتقُها، وبائعٌ نفسَهُ فموبقُها».أخرجه أحمد وهو في الصحيح المسند.

لم يقل هم لأنهم قد صاروا في ما هو شر من ذلك وما هو دون ذلك، ولكن الذين يصدقونهم ويعينونهم علىٰ البدعة وعلىٰ الباطل الذي هم فيه.

فهل يزهد بمثل هذا الشرف العظيم؟ وهل تجد مثل هذه البشارة في غير هذه الفرقة، الفرقة الناجية المنصورة صلُحت عقائدهم، صلحت عباداتهم، صلُحت أخلاقهم، وصلُحت أخرتهم انظر إلىٰ غيرهم بنظرة عامة تجد أن بعضهم يعبد القبور ويسمون فعله توحيدًا، ويشرك ويندد ويسمىٰ طريقته

مولدًا لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، بل من عجيب ذلك أن يجعل هذا المولد هو المراد بقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس:٥٨]، لا والله ما يكون المراد بهذه الآية المولد أبدًا؛ لأن المولد بدعة محدثة جاء من النصارىٰ وجاء من الباطنيين، فكيف يكون فضل الله فضل الله ما يفعله رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ما يفعله أبو بكر رضي الله عنه، ما يفعله عمر رضي الله عنه، ما يفعله عثمان، ما يفعله علي، ما تفعله القرون المفضلة، حتىٰ يأتي المتهوكون الحيارىٰ الذين قلدوا اليهود والنصارىٰ فيزعمون أن هذا قول الله وأن هذه رحمة الله أنىٰ تكون رحمة الله وهم مشركون ويندون، بل هذه نقمة الله وعذاب الله عز وجل لمن لم يتب منه، والله من مات علىٰ المولد وعاش علىٰ المولد مشركًا منددًا فهو علىٰ خطر عظيم، ولم يكن المولد ولن يكن في يوم من الأيام المولد رحمة الله عز وجل، ولا فضل الله عز وجل أبدًا؛ لأن فضل الله القرآن ورحمة الله القرآن، وفضل الله الإسلام ورحمة الله الإسلام، وفضل الله السنة ورحمة الله السنة، وأنتم ترون ما يقع من هذه المشاهد وفي هذه الزيارات من ذبح لغير الله، ومن الاستغاثة بغير الله، ومن شرك وتنديد، وأقل أحوال الذين يذهبون علىٰ هذه القبور وهذه المشاهد الابتداع أقل الأحوال أن يكونوا مبتدعة ضلال يتعرضون إلىٰ الوعيد العظيم، ما بالك إذا اقترنت بدعتهم بدعاء الرسول صلىٰ الله عليه وسلم أو بدعاء المقبورين أو باعتقاد أن النبي

صلىٰ الله عليه وسلم يحضر، أو بالذبح لغير الله أو بالنذر لغير الله أو بالتوكل والاعتماد والخوف والخشية والمحبة لغير الله سبحانه تعالىٰ.

هذه الطريقة هي الطريقة المرضية والطريقة السوية؛ لأنها طريقة محمد صلىٰ الله عليه وسلم خير البرية، فرضه الله عليها فرضها الله عليه وأكرمه بها وأكرم من سار علىٰ سيرها، فلا تستوحش يا أيها السني من قلة السالكين لا تستوحش أيها السني لأنك علىٰ طريقة مرضية وعلىٰ عقيدة سوية، إن مت عليها كنت من أهل الجنان ومن الشاربين من حوض رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ومن المظلين تحت ظل عرش الله عز وجل يوم القيامة، ومن الذين يمروا علىٰ الصراط كلمح البصر والبرق، وغير ذلك مما ذكره النبي صلىٰ الله عليه وسلم، لا تستوحش أيها السني من كثر من يخالفك أو يعارضك أو يزهد منك، ولا تغتر أيضًا بنفسك علىٰ أنك وأنك، فما من فضل هو فيك فهو من الله، فما من توفيق سلكته فهو من الله، فما من عبادة أذيتها كما يحب الله عز وجل فهو من الله.

فينبغي لنا أن نكون علىٰ حالين مع الله سبحانه وتعالىٰ حال الخوف وحال الرجاء وحال الطمع فيه سبحانه وتعالىٰ، فالخوف يمنع الإنسان من العجب ومن الرياء ومن سلوك الحرام، والرجاء يربط الإنسان بربه يرجو رحمته ويخاف عذابه، وأما عند الموت فكله رجاء، فلا يموتن أحدكم إلا هو يحسن الظن بالله كما قال صلىٰ الله عليه وسلم في حديث جابر رضي الله عنه عند

مسلم: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّمَ، قبل موتِه بثلاثةِ أيامٍ ، يقول: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ باللهِ عزَّ وجلَّ»، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «يقول الله تعالىٰ: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكَرَنِي، فإن ذَكَرَنِي في نفسِه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكَرَنِي في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٌ منهم، وإن تقرَّبَ إليَّ شبرًا تقرَّبتُ إليه ذراعًا، وإن تقرَّبَ إليَّ ذراعًا تقرَّبتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرْولةً». متفق عليه.

أيها المسلمون في هذه البلاد الطيبة إن الله عز وجل قد منّ عليكم بمنة عظيم وهي: سلامة عقائدكم، سلامة طريقكم الذي تسيرون فيه مع كثرة المخالفين فيه، وكثرة المنددين، وكثرة المحاربين لسنة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فعليكم بالعلم وإياكم أن تضيعوه أبدًا؛ لأن العلم نور وأمنة، ومن أسباب الاستقامة، ومن أسباب الرفعة، ومن أسباب الخشية، والعَالِم وطالب العلم بعيد من تسلط الشيطان إلا إذا أخلد إلىٰ الأرض، فإذا أخلد من الأرض تسلط عليه الشيطان، وأما مادام مع العلم اعتقادًا وعملًا ودعوة فو علىٰ خير: ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[المجادلة:١١]. ﴿ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر:٢٨]، وأما إذا تمسك بالأرض وأحب الدنيا الزائلة فقد مثله الله عز وجل بحيوانين اثنين وهما من اخص الحيوانات:

الأول: الكلب، قال الله عز وجل: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الأعراف:١٧٥-١٧٦].

والثاني: الحمار، قال الله عز وجل: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[الجمعة:٥].

أيها السني لا تكن كغيرك لابد أن تتميز علىٰ غيرك في الاعتقاد، وتتميز علىٰ غير بالعبادة، وتتميز علىٰ غير في المعاملة، وتتميز علىٰ غيرك في لباسك وهيئتك وفي جميع أحوالك وسكناتك؛ لأن تسير علىٰ الدليل ومن حكّم الدليل علىٰ نفسه كان أجره عظيمًا.

قال سفيان الثوري رحمه الله: إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل، ويقول أيضـًا: إنما العلم كله بالآثار.

فالإتباع الإتباع والعمل العمل بما يؤدي إلىٰ مرضاة الله سبحانه وتعالىٰ، ونسال الله لنا ولكم التوفيق والسداد والإعانة.

وسبحانك اللهم وبحمد لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك.